المحاضرة العاشرة : الإنشاء غير الطلبي

ثانيا : الجملة الإنشائية غير الطلبية

الجملة الإنشائية غير الطلبية أو الأسلوب الإنشائي غير الطلبي ؛هذه التسمية بلاغية ، و التسمية النحوية هي الجملة الإنشائية الإيقاعية . و "هي تتحقق بقصد المتكلم و نيته و إرادة إيقاع الحدث ؛ إذ لا يكون له خارج زمان القول تقصد مطابقته فيحصل الإيقاع للمعنى باللفظ في الحال . و يكون اللفظ موجدا و منشئا لذلك المعنى في زمان القول ."

و الناظر في التراث البلاغي يلفى أن هذا الضرب من معاني الإنشاء – الإنشاء غير الطلبي- سيء الحظ من الدرس و التحليل عكس قسيمه الإنشاء الطلبي الذي حظي بالعناية من الدرس و التحليل . و قد ذكر هذا بعضهم في مساق حديث عن القسمين البلاغيين ، الطلبي الذي استنفذ حظه من الدرس و التحليل ، بخلاف قسيمه غير الطلبي . ز يفسر هذا قائلا : " أما ما لم يستدع مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، و يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه. فقد كان تناوله عند البلاغيين على استحياء ، فكانت مجرد إشارات عابرة ."

و نذكر من حججهم في العزوف عن تناول هذا الأسلوب الكلامي - الإنشاء غير الطلبي – و مباحثه ، أنه " ليس مما تتوارد عليه المعاني فتجعله من الأساليب الفنية ذات العطاء و التأثير . فالقسم هو القسم ، و التعجب هو التعجب .." و ينحو هذا المنحى (التفتازاني) ، فيقول : " فالإنشاء إن لم يكن طلبا كأفعال المدح ز الذم ، و صيغ العقود ، و القسم ، ، و رب ، و نحو ذلك ، فلا يبحث عنها لقلة المباحث البيانية المتعلقة بها ." معللا ذلك بقوله : " لأن أكثرها في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء ." و البعض الآخر يعلل عدم التعرض له " لقلة وروده على ألسنة البلغاء ."

و الأمر و الأدهى من ذلك كله ، أن هناك من لم يتعرض له أصلا ، موجزا القول فيه " و ما سوى ذلك هو نتاج امتناع إجراء الكلام على الأصل ." و هناك من اكتفى بذكر اسمه في قوله : " الإنشاء ضربان : طلب و غير طلب ."

و هكذا ، غدا الاهتمام بقسم الطلب " لكثرة مباحثه ، ودقائقه و أصالته بخلاف قسيمه غير الطلبي فإنه في معظمه أخبار وضعت موضع الإنشاء كصيغ العقود، وأفعال المدح والذم ، و فعلي التعجب وعسى والقسم ."

و حاصل الكلام ، فقد اكتفى البلاغيون بحد هذا الضرب من معاني الإنشاء - غير الطلبي – و تحديد أقسامه ، بل و فسروا سبب الإعراض عنه في الدرس و التحليل . و من ثم ، اتفقوا على قطع النظر فيه. و السواد الأعظم ، أن تسميته كانت بالسلب (غير) ؟؟

و بالموازاة ؛ فالنحاة القدامى – المتقدمين منهم و المتأخرين – قد خصوا هذا اللون من الكلام بعانية فائقة ؛ إذ تناولوا جل مباحثه بالدرس و التحليل و التمثيل في مختلف الأبواب النحوية ، حتى إنهم جعلوا أحد مباحثه أم الباب . و هكذا نال هذا الضرب من معاني الإنشاء حظا وافرا من الدرس و التحليل لدى النحاة القدامى . و يبرز هذا بجلاء في إيجادهم له تسمية نحوية يُعرف بها ، و هي " الإنشاء الإيقاعي". و بهذه التسمية النحوية صار يُميز من قسيمه الإنشاء الطلبي ، أو الطلب . و قد ارتبطت هذه التسمية النحوية " الإنشاء الإيقاعي" بالمتأخرين من النحاة القدامى .

و من طريف ما ورد في هذا الشأن ، أن معاني الكلام : خبر و طلب و إنشاء / إيقاع ، أو الإنشاء الإيقاعي . وهذا الأخير قسيم الإنشاء الطلبي . و قيل :" وهما على ما اقترن معناه بلفظه من ناحية و تأخر معناه عن لفظه . فالأول إنشاء أو إيقاع ، أو إنشاء إيقاعي حسب عبارة الرضي الاستراباذي ، والثاني طلب أو إنشاء طلبي .

و مرد هذه التسمية إلى القسمة الثلاثية لمعاني الكلام (خبر و طلب و إنشاء) التي امتدت حتى عصر ابن هشام الذي حسم هذه القسمة الثلاثية و جعلها قسمة ثنائية منحصرة في ثنائية الخبر و الإنشاء ، لا غير . و من ثم ، جُعل قسما الطلب و الإيقاع ضربين متفرعين من قسم الإنشاء قسيم الخبر .

هذا ، و للباحثين العرب المحدثين دراسات و آراء يحسن الوقوف عندها . و ممّا يلفت ههنا ، إيجاد مصطلحات بديلا للمصطلح البلاغي < الإنشاء غير الطلبي > ، و فيما يرى أحدهم في هذا الشأن أنه " لما أسمي الإنشاء الانفعالي عدولا عن مصطلح علماء المعاني ، و هو الإنشاء غير الطلبي أدل على المراد ." أما الباحث تمام حسان فقد سنّ مصطلح " الإفصاح " ، أي الإنشاء الإفصاحي ، و حجته في هذا أن معظم أساليب الإنشائية غير الطلبية إفصاحية .

و تأسيسا عليه ؛ فالجملة المراد دراستها هنا هي الجملة الإنشائية الإفصاحية التي يعرفها تمام حسان بأنها " ليس فيها معنى الطلب ، و إنما يقصد بها التعبير عن خلجات النفس ." و توضيحا لذلك مثل بهذه الأمثلة ، منها ، كأن يقول القائل : " صه "، أو يزجر الحيوان ، أو يحكي الصوت . فهو لا يقوم بصياغة جملة طلبية وإنما يعبر عن حاجة نفسية إلى الصمت أو الزجر أو غير ذلك ." و من ثم ، فالجملة الإفصاحية تختلف عن غيرها من الجمل - الإسنادية - إذ لا تلتزم بشروط الصوغ المطردة < التأليف من ركنيين > فعل و فاعل ، و إنما تعد هذه الجمل من العبارات المسكوكة ."

حصر تمام حسان فروع الجملة الإفصاحية كالتالي :

* **القسم** ، (الواو ، الباء)

* **العقود** ،(قبلت)

* **التعجب** ، (ما أحسن ، ما الحاقة ، لله أنت)

* **المدح و الذم** ، (نعم ، بئس)

* **الإخالة** (هيهات ، وي ، صه)

* **حكاية الصوت** (طق) .

و بعد تعرضه لهذه الفروع استدرك **الندبة** .

ملحوظة ، الإنشاءات الإفصاحية أو الإفصاحيات هي أكثر من هذه التي ذكرها تمام حسان .

و من أمثلة الجملة الإفصاحية يمكن ذكر البعض منها - لضيق مساحة الدرس –

* **المدح والذم** : وهما معنيان يردان في الكلام كثيرا ؛ إذ يمدح الإنسان بخلة محمودة ، أو يذم بصفة سيئة بأساليب التعبير المعروفة ، إلا أن المراد هنا هو التعبير عن هذين المعنيين بهذه الأفعال الجامدة

(نعم ، بئس ، حبذا ، ساء) .يقول ابن السراج : " نعم و بئس و ما كان في معناهما إنما يقع للجنس ، و يجيئان لحمد و ذم ." إذا ، فنعم و بئس كلمتان وضعتا لإنشاء المدح و الذم على سبيل المبالغة . و ذلك أنك إذا قلت : " نعم الرجل زيد "فإنما تنشئ المدح ، وتحدثه بهذا اللفظ . فقد خلصت للإيقاع ، إيقاع المدح أو الذم ."

* **الندبة** : إنشاء إفصاحي (انفعالي) و ذلك لتضمن أسلوبها قيمة انفعالية . و هذا المفهوم مبثوث في الكتب النحوية القديمة . و يعرفها السيرافي " – الندبة – تفجع و نوح و حزن و غم يلحق النادب على المندوب عند فقده فيدعوه ، ز إن كان يعلم أنه لا يجيب لإزالة الشدة التي لحقته بفقده ." فالنادب هو اللافظ لهذه العبارات " وازيداه " ، " وارأساه ". و المندوب هو المتفجع عليه أو المتوجع منه ، و هو لا يكون إلا معرفة .

* **التعجب** : " انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه ." و التعجب عند النحاة " يدل على الدهش و الاستغراب ، و له صيغتان مشهورتان هما : " ما أفعل " و " أفعل به " ." يوضح ابن السراج دلالة هاتين الصيغتين : " وإنما لزم فعل التعجب لفظا واحدا و لم يصرف ليدل على التعجب " نحو ، إذا قلت : " ما أحسن زيدا " أو" أكرم بزيد " . فالمتكلم هنا لا يأمر المخاطب بل يتعجب ، لذا يترك للفظ دلالة صيغته للتعبير عن مقصود هو التعجب . و هناك صيغ أخرى ، مثل النداء التعجبي ، نحو " يا للماء " . تعجبا من كثرته . و " لله دره " . بمعنى كثر الله خيره . و غيرها من الصيغ . فالانفعال التعجبي يحصل بين المتعجَب منه ،من جهة ، و المتعجِب المنفعل ، من جهة أخرى .

* **أسماء الأفعال و الأصوات / الإخالة / الخالفة** : لقد اهتدى النحاة القدامى من خلال تمييزهم الطلب من الإنشاء الانفعالي إلى تمييزأسماء الأفعال الطلبية من أسماء الأفعال الإنشائية / الإفصاحية . و المراد باسم الفعل ذلك الضرب من الكلمات التي تنوب عن الفعل في العمل و لا تتأثر بالعوامل ، و ليست من الفضلات . و منها قسم المبنيات المتمثل في : < هيهات ، شتّان ، أوّه ، وي ، آمين ، صه ، مه >. و هذه بعض الأمثلة التوضيحية ،

* هيهات ، نحو قوله تعالى : " هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) "[المؤمنون] ، بمعنى ما بعد لما توعدون .

* وَيْ ، نحو قوله تعالى : " وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) " [القصص]

* آمين ، بمعنى استجب في الدعاء .

* أف ، نحو قوله تعالى : " أُفٍ لَكُمَا وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (36) " [الأنبياء]

* شتّان ، نحو ، شتّان بين الثرى و الثريا .

* أوَّه ، أتوجع ، إفصاح عما تحس به من الألم .

* حكاية الأصوات ، المراد بها حكاية لصوت حيوان ، كغاق لصوت الغراب . و حكاية الأصوات في الطبيعة ، كطق ، حكاية لصوت وقع الحجر بعضها على بعض .

* التكثير ب " كم الخبرية " و التقليل ب "رُبّ " ، نحو " كم عالمٍ لقيتُه . " و " رب ضارةٍ نافعة " .

و خلاصة القول ، فهذه بعض موضوعات الجملة الإنشائية الإفصاحية ، للاستزادة يمكن الرجوع إلى الكتب النحوية .